وقف في شرفته في الفندق يطل على دمشق، كانت السيارات تذرع الطرقات، والمارة في غدو ورواح ، والمصابيح الكهربية تبدد ظلام الليل ، نظر الى ساعته ورمق رقعة ممدودة ، فما أشرفت على التاسعة بعد، انه يحس مللا يتسرب الى روحه وفراغا هائلا يحتويه ، ورغبة في أن يفر الى شيء ، أي شيء .

وسمع صوت سيارة تقف فجأة ، اعقبها صوت جندي المرور يسب ويتوعد، فالتفت في اهتمام ، وراح يتابع السباب، وقد رفعت على شفتيه بسمة ، كان الجندي يصب اللعنة على السائق ، ويشعل النيران في دينه ودين أجداده وسرعان ماخبت الثورة وانطلق السائق بسيارته في طريقه كأنما لم يحدث شيء .

وعاد كل حركة تحركت في نفسه الى مرقدها ، وراح يمد بصره الى محطة السكة الحديد في ملل ، وانتابه خوف من الزمن الذي يسير في بطء يرهق اعصابه، آه لو كان ممن يدمنون الشراب لهرع الى حانة يؤنس وحدته برفقة كأس ، ويشارك روادها حياتهم .

انه منذ أن جاء الى دمشق وهو وحيد، يعرق في العمل الذي ترك القاهرة من أجله حتى منتصف النهار ، ثم تبدأ وحدته القاتلة التي ترهقه ، وتلقي به في عياهب فراغ مخيف . انه منذ أن وطأت قدمه أرض دمشق لم يلق مايثير، يذهب في الصباح الى عمله ثم يعود الى الفندق ، حتى اذا ماجن الليل راح يجوس خلال الطرقات حتى يتعب ومن ثم يعود الى الفندق لينام .

النبي فتاة اول أمس في فناء الفندق، راحت تحدق فيه برهة ، ثم قالت

عبد الحميد جوده السحار

ـ من مصر ؟

ـ نعم .

ـ هلا . لي أصـــدقاء كثيرون في مصر .. أتعرف الدكتور محمد مراد ؟ انه ســـاكن في الدقي . انه من أعز أصدقائي . أتعرف الاستاذ صدقي عارف ، انه هو الآخر صـــديقي . اني عشـــت في مصر ســـنوات ، لي فيهـــا أصدقاء أعزاء .

ـ تشرفنا .

ومد يده وتناول مفتاح غرفتـــه وقال لها وهو ينصرف :

ـ عن اذنك .

لماذا فعل هذا ؟ لماذا رفض صـــداقة مدت له يدها وهو في اشد الحاجة الى انسان يؤكد له انه حي ، وان ذلك الذي ينبض بين ضلوعه هو قلبه . وان الهواء الخارج من أنفه هو انفاسه وأنه موجود على اليقين ، فهو في كثير من لحظات فراغه يشك في ذلك الوجود .

وسرى صـــوت فيرور حمومًا يعني « وروروني كل سنة مرة حرام تسموني بالمره . حرام . » فأحس كأن تيـــارا من دفء الحياة يتدفق في وجدانه ، ونسـاب الى قلبه ليحرك عواطف رقيقة في نفسه ، تبلل عيناه بالدموع .

ووقف حائرا يصغي ، الابقام تتسكب من أدنيه الى روحه فتشيع في نفسه أسى وحزنا بعيد انه في قرارته كان سعيدا بتلك المشـاعر التي جعلتـــه يحس انه يعيش . وسكت الصوت ، وظلت لـــه الحياة التي خلفها مشتعلة فيه ، فتحرك لمغادر الشرفة وينطلق الى الطريق .

وسار يتلفت ، يحس رغبـــة في أن يتحدث الى الناس ، وكلما وقعت عيناه على اثنين يتناجيان راح ينظر اليهما نظرة محروم ، حتى اذا ما بلغ مقهى والقاه يعج بالنـــاس عجيجا عرج اليه وجلس على أول كرسي قابله عنـــد المدخـــل ، وراح يدير عينيه في الموجودين ، كانوا يدخنون الزجيلة ويلتفون حول من يتبارون في لعب الطاولة .

انه لم يشته يوما أن يلعب الطاولة ، بيد انه كان في هذه اللحظة يكاد يذوب شوقا الى انسان يدعوه الى مبارلتـــه ، ومادار بخلده أبدا الغور أو الهزيمة . كل ما يتمناه أن يسمع صوتا يوجه اليه ، ولو ظل ذلك صـــوت ساخر منـــه ومن لعبه ويتهمه بأنه عشيم .

جاء أحد العاملين بالمقهى ووقف أمامه وقال :

ـ زجيلة ؟

ـ شكرا ، شاي بالنعنع .

وانصرف الرجـــل وسرعان مـــا عاد بالشـــاي ، ووقف برهة دون أن يضـــع الشاي على المقعد ثم قال :

ـ ألا تتفضل بالداخل ؟

وقرأ الرجل في عينيـــه الدهشـــة ، فقال له :

ـ حتى لا تأخذ « أخه » .

ورأى الرجل أن الدهشـــة زادت في عينيه ، فقال له :

ـ مصري ؟

ـ نعم .

فقال الرجل مفسرا :

ـ اخه عندكم يعني .. يعني كحة ..

ثم انفجر الرجل ضاحكا كأنما كانت كلمة « كحة » تحمل معنى يثير الضحك الذي تهتز له البطون وتنشرح له الأوداج!

وقام ودخل وجلس بعيدا عن الهواء حتى لا يصاب « بأخه » وراح يتناول الشاي وسرعان ما عاد اليه سأمه ، فنهض وغادر المكان .

وراح يضرب في شوارع دمشق ، يلف ويدور ، حتى وجد نفسه أمام ملهى الكروان ، فأخذ يقتل الوقت بمشاهدة صور الراقصات وقراءة الاعلانات ، ووقعت عيناه على صورة فتاة الملاية ، فسكن في الغرفة الملاصقة لغرفته بالفندق ، كان يراها وهي صاعدة أو هابطة ، ولم يدر بخلده أنها فتاة من فتيات الفرقة الالمانية التي تعمل في ملهى الكروان .

وشرد ذهنه ورأى نفسه يعيد حياله وهو يحمل علبة شيكولاتة انيقة ويطرق باب غرفتها ، فتفتح له ، ويقدم لها العلبة وهو يقول « تفضلي . كنت بالامس رائعة » وأفاق من شروده فوجد نفسه يتقدم ويدخل الملهى الليلي .

وجلس بين الناس ، وعزفت الموسيقى وارتفع الستار وامتلأ المسرح براقصات عاريات أحدثن بصره لمعات وسرعان ما شعر بالفراغ يملأ وجدانه ، وخطر له أن يبحث عن الفتاة التي صور له خياله أنه يطرق باب غرفتها ، فراح يتلفت حوله ويتفرس في الواقفات عند المداخل يعرض أنفسهن على طلاب المتعة ، الا أنه لم يجدها ، فعاد يمد بصره الى الفتيات اللاتي يخطرن على المسرح ، فرآها عارية متلهفة ، الا أنها أرفعهن ،

لم تمتلىء ارداقها بعد وبرز صدرها في حياء ، كانت في السادسة عشرة من عمرها ، تتمحل بضحكها لتمارس أول تجاربه مارستها المرأة .

واستمر ينظر دون أن يستشعر شيئا كأنما الصلة التي بين عقله وبصره وأذنيه قد انقطعت ، وبدأ يحس بصدره يضيق ، كأن المكان كله قد جثم على أنفاسه ، فنهض وسار متثاقلا لا يدري ماذا يفعل .

وخرج الى الطريق ولمح الهواء وجهه ، فاذا بدهنه ينشط ، راح يفكر في أمره ، كان وهو صغير يعتقد أن حبه لو امتلأ بالمال لحلت كل مشاكل دنياه ، وهاهي ذي النقود تكاد تملأ كل جيوبه وتعجز عن أن تقنعه بوجوده !

وجذب بصره اثنان يترنحان من السكر ، يقع أحدهما على الارض ، فحاول زميله أن ينتشله ، فوقف يرقبهما ، لا يدري أيحسدهما أم يرثي لهما ، وظل الزميلان في جهاد حتى استويا على أقدامهما ، فسارا خطوات واذا بعمود النور يعترض سبيلهما ، فامسكا به واخذا يدوران حوله ، وكأنما أعجبتهما اللعبة ، فطفقا يضحكان في براءة الاطفال ، وخطر له أن يمشي كبرياءه وأن يتظاهر بالسكر وأن يمسك بهما ويدور معهما وأن يطلق نفسه على سجيتها ، يغني ويجري ويمرح دون أن يحفل بعيون الناس ، وكاد أن يستجيب لهواجس نفسه ، في الوقت الذي ظهر فيه الشرطي الى جوار الرجلين اللذين أغرقا همومهما في الكؤوس ، فامتعل وقد طارت افكاره وعاد اليه الهواء ليملأ تجويف رأسه وفراغ قلبه .

وراودته فكرة العودة الى الفندق ،

الا أنه لم يكن يشعر برعبة في النوم ، فسار على غير هدى ، وأنس نورا يتلألأ على البعد ، فذهب اليه ، وقرأ « ثريا حلمي ومرقتها » ، فأحس حبيبا يتحرك بين أحشائه ، وتقدم ليدخل الملهى دون أن يتردد .

كانت المناضد والكراسي منتشرة في قاعة واسعة ، وكان شرف من الخشب الذي كسي بسجاجيد حمراء يتوسط القاعة ، انه المسرح من غير شك . والعي نفسه يتقدم ليجلس بالقرب من المسرح .

وقال المذيع السوري الذي يقدم النحوم :

ـ منولوجست الشرق ثريا حلمي ، في منولوج « انت ترقص » .

وظهرت ثريا ترتدي ثوبا أبيض من ثياب أولاد البلد وقد تحزمت بحزام وفي يدها عصى ، ودوى المكان بالتصفيق ، وراحت تلقي منولوجها ، وبدأت ترقص ، الا أنها كانت تتوقف بين لحظة وأخرى لان الطلبة أحققت في أن تتتبع هزات جسمها وبلع ريقها من الغرقة المصاحبة لها منتهاه ، فقالت :

ـ اين أنتم يا اولاد مصر ؟

فتحرك في مقعده وكاد يصيح « نحن هنا » ، ولكنه كبح جماح نفسه ، وان كانت قوة طاغية في قراره تحاول أن تدفعه ليصعد على المسرح ويتناول الطبلة ، ويجاري ثريا في هزات أردافها وحركات وسطها .

وانتهت ثريا من منولوجاتها ورقصاتها وصمت المذيع السوري دقائق يعلن :

ـ والآن تشاهدون الرقص الشرقي من فاتنة النيل سلوى فريد .

ودق قلبه في عنف ، وسرت دماء حارة في عروقه وأرهفت حواسه جميعا ، وتركزت عيناه على المسرح ، وديت فيه حياة لم يستشعر مثلها منذ أن جاء الى دمشق ، بل منذ أمد طويل ، وأحس وجوده وساعد على ذلك الاحساس المشاعر المتباينة التي كانت تتدفق الى فؤاده وتنبعث منه لتغمر كل الحواس .

وظهرت على خشبة المسرح راقصة أشبه بتمثال يعلوه رأس ، راحت تهتز في عنف شديد وحاولت أن تميل بصدرها الى الخلف ، الا أن وسطها لم يعاونها ، وانبعثت من أرجاء القاعة الضحكات .

كان الجميع يسخرون منها ، وكلما حاولت أن تهز الوسط الذي يحمل مساقيها المكتنزتين باللحم ، كلما ارتفعت ضحكات الاستهزاء ، بينما ظل هو ينظر اليها ولكنه لم يكن يراها بعينيه بل كان يراها بخياله ، عادت به الذكريات سنين طويلة ، الى تلك الايام التي كان فيها طالبا ، وكانت سلوى تعمل في كازينو بديعة بالقرب من كبرى الحلاء .

كانت في تلك الايام فاتنة النيل حقا ، كانت ممشوقة القد ، ناصعة البياض ، ورقاء العينين ، ذهبية الشعر ، وقد أطلق عليها رواد الليل سلوى الانجليزية ، فقد كانت تشبه بالانجليزيات وكانت مفضلة عند الجنود الانجليز .

انه يرى نفسه يوم كان طالبا في كلية الحقوق ، ويذكر ذلك اليوم الذي ساقته قدماه الى ملهى بديعة ، انه جلس في الصف الاول يشاهد الراقصات ، وما كان يعرف عنهن شيئا في ذلك

اليوم ، كل ما كان يتمناه ان يمضي ليلة يروح فيها عن نفسه . ثم يعود الى دروسه ، وراحت الرقصات تتتابع وهو يشاهدها في عدم اهتمام ، حتى اذا ما ظهرت سلوى على المسرح ، أحس قوة تجذبه اليها وراحت ترقص فخيل اليه أنها ترقص له وحده ، وابتسمت فابتسمت الحياة كلها وعبرت عينيها عن دلال فاستشعر كأن يدا خافية تعبث في رقة بأوتار قلبه .

وانتهت من رقصتها ، فاحدب يصفق لها في حماس ، دون أن يحفل بالعيون التي تطلعت به ، وسار كالمسحور حتى وقف تحت أقدامها وهو يصيح : برافو . برافو . والتقت عيناه بعينيها فرأى فيها جمال الدنيا وبهجتها .

وعاد الى بيته وهو مأخوذ بسحر سلوى وتمدد في فراشه وطفق يفكر في البسمة والعبرة والروح الخفية التي كاد يرى صفاءها من خلال عينيها ، وشخص ببصره الى بعيد ، كأن يراها في خلالة شفافة ترقص له ، وشرد خياله فرآها تميل عليه وتضمه بين ذراعيها وتقبله قبلة شهية كادت روحه تستشعر حلاوتها .

وفي الصباح مر وهو في طريقه الى الجامعة بالكاريو ، فخفق قلبه ومد عينيه من خلال نافذة الاوتوبيس يبحث عنها ، كأنما كان يظن أنها في الكاريو لا تغادره ابدا ، وانطلق الاوتوبيس في طريقه وخلف الكاريو خلفه ، الا أن سلوى كانت في ذهنه وفي قلبه .

وقفزت الى رأسه فكرة وهو في المدرج بين زملائه ، لماذا لا يذهب الى الكاريو الآن يشاهدها وهي تتدرب على الرقص في الصباح ؟ واعجبته الفكرة فلم يناقشها وانسل من المدرج وانطلق اليها .

وقف أمام الدرجات التي تقود الى الملهى وهو خافق القلب ، تطلعت في خوف ، وسمعت أذنيه موسيقى راقصة ، فلم اطراف شجاعته وتقدم ، وأشرف على المكان فرأى المدرب واقفا بين فتيات وهو يدربهن على رقصة جديدة ويقول وهو يصفق بيديه : واحد اثنين ... واحد . اثنين ... ، وتقدم على استحياء ثم جلس ينظر .

وانتهت التدريبات ولاحت سلوى بثياب الصباح . كانت بسيطة بساطة جعلتها في عينيه أروع مما هي وهي عارية تعمرها الاضواء . خفق قلبه في شدة بين جنبيه ، وفكر في الفرار ، الا أنه حقد على نفسه التي تريد أن تخرجه من الحلبة التي عرف طريقها ، وتشبث بكرسيه .

واخذت تعدو وتروح على أنغام التخت كالطيف وتميل تمايل الاغصان وهو يتبعها بعينيه أينما سارت كعباد الشمس وانتهت من رقصتها ثم هبطت الى حيث كان يجلس واتجهت اليه فاشتد وجيب قلبه حتى انه استشعر أنه سيفر من بين جنبيه .

وأصبحت على بعد خطوة واحدة منه ، ووقفت ثم قالت :

ـ سيجارة من فضلك .

فقال في تعثم :

ـ آسف أنا لا ادخن .

وراحت تتلفت ثم نظرت اليه وقالت وهي تفتح حقيبة يدها :

ـ هل تتكرم بشراء سجاير لي ·

ومدت اليه ورقة من فئة الخمسين قرشا ، فأخذها منها وهو حانق على نفسه · لم يكن في جيبه الا أجر الاوتوبيس ، آه لو كان معه نقود لطار يشتري لها بماله ما تريد ·

وقف يشتري لها السجاير وسرعان ماعاد اليها بما طلبت ، لايجد غضاضة في أن تكلفه شراء سجاير لها ، فوالدي كان يثور على أمه وهو صغير اذا ماسألته أن يشتري لها شيئا من دكان البقال الذي كان على بعد خطوات من منزلهم ·

وراح يتردد على الكاريتو في الصباح يشاهدها وهي تتدرب على رقصتها ، حتى اذا ما انتهت منها أسرع اليها يقدم لها سيجارة من علبة صار يحملها في جيبه ، كي يشتريها مما يوفره من أجر الاوتوبيس ·

وشغف بها حبا حتى انه ظن أن لا حياة له بدونها ، ووطن العزم على أن يفاتحها بحبه ، ويعرض عليها قلبه ، وكان كل ما يملكه في دنياه ·

ووقف يرقبها وهي ترقص ومشاعر طاغية تتصاعل في جوفه ، وكانت أول مرة ينسى فيها أن تنتهي من رقصتها · ولاح القلق الذي يمور بين ضلوعه على حركاته ، فكان يعبث في شعره وفي أصابعه وفي ازرار جاكتته ويرفع رجلا ليهبط اخرى وأخيرا انتهت من تدريبها وسارت الى مقعد وجلست تستريح ، فذهب اليها وسحب كرسيا وجلس الى جوارها وقال

ـ اريد يا سلوى أن أحدثك في أمر هام ·

فقالت دون أن تلتفت اليه

ـ تكلم ·

فقال في انفعال

ـ أحبك يا سلوى ·

فقالت في بساطة

ـ متشكرة ·

ولم تؤثر فيه لهجتها الساخرة ، بل قال مندفعا

ـ واريد أن اتزوجك ·

والتفتت اليه وقالت في استخفاف

ـ وبعدا ستشتريني ؟

فقال في حرارة

ـ اني بعد سنة واحدة سأحصل على الليسانس ·

فقالت له في هدوء

ـ وبعدا ستعيش حتى تحصل على الليسانس يا روح ماما ؟

وظل ينظر اليها في وجد دون أن ينبس بكلمة ، فقالت له

ـ اسمع يا ·· انا لا أعرف اسمك حتى الآن · ولا أظن أن الامر سيختلف كثيرا لو عرفت اسمك· اسمع نصيحتي انا خلقت لطريق ، وأنت خلقت لطريق آخر ·

فقال في حماس

ـ لا يا سلوى انت خلقت لي ، لي وحدي · انا احبك ·· اعبدك ولا قيمة لحياتي بدونك ، سأعمل من أجلك ، من أجل أن اسعدك ··

ـ لا يزال صغيرا يا صديقي ، اذهب الى مدرستك .

ـ انا اوعى لكل كلمة اقولها . مية واحدة ، اصبح محاميا وبعدها بتروح .

فهمست وهي تقول في سخرية

ـ وبعد بضع سنين تصبح وزيرا .

وسارت وسار خلفها وهو يقول

ـ سلوى ارجوك .

فوقفت والتفتت اليه وقالت في حزم

ـ اصبح . لا اريد ان اراك هنا ، ولا احب ان تضيع وقتي .

ـ احبك يا سلوى .

ـ وانا لا احبك .

ووقف كالتمثال وان احس صخرا يطعن قلبه ويمزق احشاءه وراحت توسع من خطوها حتى ابتعدت عنه ، وهو يتلوى من الالم وشل في النار التي اشتعلت في جوفه .

وافاق من شروده على ضحكات السخرية التي كانت تدوي في ارجاء القاعة ونظر الى سلوى التي اصبحت اشبه بعروس وراح يتبعها بعينيه وهي تهبط من على المسرح وتسير بين الموائد لتحتل مائدة في مؤخرة القاعة ، بالقرب من باب الدخول .

وجاء رجل مفتول الشارب ، يرتدي توبا رثا وعلى رأسه طربوش ، يبدو كانما صبغه الاسفلت قد غمس في الزيت ، كان مظهره يوحي بانه حوذي ، واتجه الرجل الى المائدة التي جلست اليها سلوى وجلس معها ونادى الجرسون وطلب منه شيئا .

وجاء الجرسون بكاس نبيذ ، فراحت سلوى والرجل يتقارعان الكئوس ، وهو ينظر اليها من طرف عينيه ، وقد غمره أسى وطافت به موجة رثاء ، وتفجرت في جوفه شفقة ، بللت عينيه بالدموع .

واشار باصبعه للجرسون ، فجاء يلبي اشارته وقال

ـ في الخدمة سيدي .

ـ ارسل زجاجة شمبانيا للسيدة سلوى .

وأومأ براسه الى حيث كانت تجلس فقال الجرسون في دهش

ـ زجاجة شمبانيا ؟؟

ـ نعم .

واخرج من جيبه حافظة منتفخة ، ودفع للجرسون ثمن الزجاجة ، فتناول منه الجرسون المبلغ وهو يرمقه في بلاهة ثم قال

ـ ممنونين سيدي .

ودس حافظة النقود في جيبه ، ثم انساب صوب الباب ، ومر بالمائدة التي تجلس اليها سلوى ، والتقت عيناه بعينيها ، فاضطرب وخفق قلبه ، وراح يوسع من خطوه ليخفي اضطرابه بينما راحت تلقي بكاس النبيذ في جوفها ، دون ان يبدو عليها انها رات شيئا ما يذكرها بماضيها .